عروبة مصر !

أحمد ع. حجازي

هذه الدراسة (*) التي أقدمها ليست محاولة في اثبات عروبة مصر . فعروبة مصر ليست شيئا منفصلا عن مصر ، انها مصر ذاتها ، فليس ينكرها الا عدو ، أو خادم له . أو صفيق لا يستحي من انكار الواقع الماثل . وأنا لم أكتب هذه الدراسة لاي من هؤلاء ، وانما كتبتها للذين يعلمون ان الاعتزاز الحق بمصر يعني الدفاع عن أرضها وثقافتها وحريتها ومصالحها ومقدساتها ، وهذا بالضبط ما تريده منهم العروبة ، فمن يعتز بمصريته ويدافع عنها يعتز في ذات الوقت بعروبته ويدافع عنها . وقد آن أوان الخروج من أحابيل هذه المناظرة الخبيثة : مصريون أم عرب ؟ فليس هناك عربي لا ينتمي لقطر بالذات من أقطار الوطن العربي ، وما دمنا مصريين فنحن عرب . والسؤال الذي ينبغي طرحه هو : ماذا يترتب علينا من واجب بحكم انتمائنا لمصر ؟

ليس هناك في الحقيقة الا جواب واحد هو الدفاع عن مصر ضد أعدائها . ولكن من هم أعداء مصر ؟ هنا تتناقض الاجابات باختلاف درجة الوعي وتناقض المصالح . فالذين يعيشون من كدهم وعرق جبينهم ويدركون ان حياة أبنائهم متوقفة على تحرر بلادهم وتقدمها يرون ان أعداء مصر هم الاستعماريون والصهيونيون والرجعيون ، وهم ذاتهم أعداء بقية الجماهير العربية ، والذين ترتبط مصالحهم بمصالح الاستعمار والرجعية يقولون : بل ان أعداء مصر هم العرب . لكن هؤلاء لا يفصحون عن حقيقة وجودهم فينادون بالعودة صراحة الى أحضان الاستعمار ، وانما يستترون تحت شعار مصر بعد أن يفرغوه من معناه الوطني الحق ، ويحولوه الى شعار مناقض للعروبة ومعاد لفلسطين ، وذيل لاميركا والصهيونية . تماما كما حدث في أوائل هذا القرن عندما كان حزب الامة يرفع شعار مصر ليبرر به الاحتلال البريطاني ردا على الحزب الوطني الذي كان يدافع عن علاقة مصر بتركيا لاثبات عدم شرعية الاحتلال ، حتى وصلت الصراحة بحزب الامة الى أن يقول في صحيفته اذا كان لا بد أن تحكم مصر دولة أجنبية فنحن لا نختار الا بريطانيا !

ان هذا المحتوى اللاوطني لشعار مصر المرفوع في هذه الايام ليس صحيحا فحسب استنادا الى المنطق وحوادث التاريخ الماضي ، بل هو صحيح كذلك استنادا للوقائع العملية التي تحدث في مصر الآن ، والتي هي أقوى ما يفضح هؤلاء الذين يرددون شعار مصر بمعناه الاستسلامي الرجعي . وما أكثر كلمات الحق التي أريد بها باطل !

(*) مقدمة كتاب « عروبة مصر » الذي يصدر عن « دار الآداب » هذا الشهر .

نعم ، لنرفع شعار مصر . لكن ضد المستعمرين الذين يسرقون ثرواتنا ويصدرون الينا الخراب والتخلف، وضد الصهيونيين الذين مزقوا بلادنا وداسوا حرماتنا وقتلوا شبابنا ، وضد الرجعيين المستعدين لبيع كل شيء ما داموا يقتسمون الثمن مع أسيادهم ويحتكرون الثروة والسلطة . لنرفع شعار مصر ضد هؤلاء فلن يكون عندئذ مناقضا للعروبة بل سيكون مرادفا لها ، حتى يصح أن يكون كل العرب بهذا المعنى مصريين، كما يصح أن يكون المصريون عربا .

الشعار الوطني اذن مضمون اجتماعي وموقف سياسي قبل أي شيء آخر . وكما يمكن للشعارات المستمدة من أسماء الاقاليم والاقطار أن يكون لها مضمون تقدمي وآخر رجعي ، يمكن لشعار العروبة أن يكون له هذان المضمونان المتناقضان . فعروبة الجماهير التي تناضل من أجل الوحدة والتقدم والحريات الديمقراطية غير عروبة النظم الرجعية الحاكمة . سوى ان شعار العروبة كان له دائما وفي زمننا الحاضر خاصة مضمون معاد للاستعمار ، لقدرته الهائلة على استثارة مشاعر الاعتزاز بالشخصية القومية المميزة ورص صفوف الجماهير العربية المبعثرة ، وبعث روح التحدي والابداع الكامنة فيها . هذا المضمون التقدمي لعروبة مصر كما عبرت عن نفسها في مراحل التاريخ المختلفة هو محور دراستي . فلم أتحدث عن عروبة مصر من الناحية النظرية أو الفقهية الا بالقدر الذي يضع أساسا لمناقشة فعلها في تاريخ مصر . والسؤال الذي استغرقت اجابته معظم صفحات هذه الدراسة هو : لصالح من من القوى الاجتماعية كان يرفع شعار العروبة؟ أو من هي القوى الاجتماعية التي وقفت مع هذا الشعار ومن هي القوى التي وقفت ضده ؟

وأنا لن أكرر في هذه المقدمة ما شرحته في صلب الدراسة ، لكني أريد أن ألفت الانتباه الى مسألتين رئيسيتين أعتقد انني قدمت فيهما بعض الاجتهادات . أما المسألة الاولى فهي مسألة الاستمرار والانقطاع في تاريخ مصر الذي ما زال يقدم لنا على انه عصور سياسية متناقضة منسوبة الى السلالات والاسر الحاكمة ، فهو تاريخ يفتقر الى الوحدة وخصوصا بين شطريه الرئيسيين الفرعوني والعربي الاسلامي .

ان السر في هذا الفصل بين مراحل التاريخ المصري هو النظر الى اسلام المصريين وتعربهم على انه نتيجة فعل خارجي كان المصريون مجرد موضوع له . في حين اننا لو نظرنا اليه على انه النتيجة المنطقية لتطور التاريخ المصري القديم من ناحية وتفاعله مع تاريخ المنطقة وأحداثها من ناحية أخرى لأدركنا أن مصر العربية الاسلامية ليست الا ولادة جديدة متطورة لمصر الفرعونية التي كانت قد اضمحلت قبل ظهور الاسلام بأكثر من ألف عام . والواجب علينا في هذه الحالة أن نبحث في كل من الحضارة الفرعونية والحضارة العربية الاسلامية عن العناصر المشتركة بالاصل أو بالتفاعل لنصل الى التفسير الحقيقي لسرعة اسلام المصريين وتعربهم وبالتالي لتطور التاريخ المصري على النحو الذي تطور عليه ؛ فهذه الدراسة في أحد جوانبها محاولة في رؤية عناصر الوحدة والاستمرار في تاريخ مصر ، لانها تنظر الى هذا التاريخ على انه نتيجة عمل أجيال الشعب قبل أن يكون نتيجة لعمل الحكام والقادة ، وهي بذلك تهدف الى تحقيق الانسجام بين المصريين وتاريخهم وجعل الانتساب له فخرا بدلا من ذلك الاحساس بالعار الذي يتسرب الى وجداننا عن طريق النظرة التي تقدم لنا هذا التاريخ وكأنه تاريخ عبوديتنا لا تاريخ نضالنا وثمرة اختيارنا وابداعنا في كل ميدان وفي كل عصر .

المسألة الاخرى وهي متصلة بالمسألة الاولى هي الدور الذي لعبه الاسلام والعروبة في الصراعات الطبقية التي عرفتها مصر منذ الفتح العربي حتى الآن .

ان هذه المسألة غامضة جدا . والاجابات التي قدمت عنها سلبية في معظمها ، لان الوثائق التي تتناول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في النظم الاسلامية غير كافية حتى الآن ، والنظم الاسلامية لها خصوصيتها بحيث لا نتمكن من فهمها بالقياس الى مثيلاتها في المجتمعات والحضارات الاخرى ، والباحثون في مسألة الصراعات الاجتماعية غالبا ما يكون لهم موقف سلبي أو حذر من الدين عامة ومن الاسلام خاصة . ومن هذا المنطلق الاجتماعي فضلا عن المنطلق التاريخي الذي يفسر انتشار الاسلام بالقهر يشيع لدى كثير من كتابنا ومثقفينا احساس بأن الاسلام والعروبة كانا سلاحا في أيدي القوى الرجعية الحاكمة ، ولهذا ينحاز بعض هؤلاء الكتاب الى مستعمر مغامر مثل بونابرت ضد قائد المقاومة المصرية الباسلة السيد عمر مكرم حامل البيرق النبوي في ثورة القاهرة على الفرنسيين ، كما ينحازون الى مستبد طائش مثل الخديوي اسماعيل ضد عرابي الذي « اقام الأذكار واستعان بالاولياء في حربه مع الانكليز » .

وليس هذا مجال الرد على هذه الآراء الفاسدة ، وانما سقت بعضها كمثال على هذا الموقف الشائع من الدور الاجتماعي الذي لعبه الاسلام والعروبة والذي أرى بحكم ايماني بأن الاسلام والعروبة تطور طبيعي لتاريخ مصر وبحكم قربي النسبي من مصادر التراث العربي الاسلامي انه موقف سريع متحيز منقول عن جهلاء المستشرقين ومتعصبيهم .

ان انتشار الاسلام بالسرعة التي انتشر بها لا يمكن أن يفسر الا بما فيه من قيم شعبية ديموقراطية جعلت

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

عروبة مصر !

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣ ـ

الداخلين فيه من أبناء الشعوب الاخرى يسابقون ابناءه الاوائل في الجهاد تحت راياته والذود عن حماه . واذا كان الاسلام ككل دين وفكرة يقبل تفسيرات مختلفة فحوادث التاريخ ترينا ان النص الديني الاسلامي دافع عن حقوق جماهير المسلمين وقاد انتفاضاتهم اكثر مما دافع عن الحكام وبرر أفعالهم . وما يقال عن الاسلام يقال عن العروبة وخاصة في العصور الماضية التي امتزج فيها الدين بالقومية امتزاجا شديدا ، بل ان دور العروبة في الدفاع عن حقوق المصريين في بعض العصور أوضح ، لان العروبة كانت تميز المصريين من حكامهم المماليك والاتراك في حين كانت وحدة الدين بين الحكام والمحكومين تخفف من حدة الصراع . لكن الدور الثوري للشخصية العربية الاسلامية في مصر يزداد نضجا وتألقا عندما تبدأ ملحمة النضال المصري ضد المستعمرين الاوروبيين في العصر الحديث .

وانا أقدم هذه الدراسة للطليعة من شباب مصر ؛ فلولا حاجتي لمخاطبتهم ما كتبتها . وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يحكموا على الآراء التي قدمتها بالصواب أو بالخطأ ، لاني لا أقدم هنا بحثا أكاديميا وانما أتحدث عن ميراث قومي يتعرض للتزييف والتبديد ، وأقترح حلا للتناقضات المفتعلة بين عقائد القوى الوطنية المختلفة . ولا شك ان هذه الدراسة لا تخلو من أخطاء ونواقص ، لكني أسمح لنفسي بالقول ان الخطوط العريضة فيها صحيحة ، لانها ليست ابتكارا وانما هي استقراء للمسار الذي اتخذه نضال المصريين على مر العصور .

ان حاجة هذه الدراسة لهذا النوع من القراء هي ذاتها التي دفعتني الى كتابتها ، فليس هذا الميدان ميداني ، ولو انها شهوة الكتابة لكان المجال في الشعر افسح ، ولكننا الآن أمام خطر حقيقي داهم لا يصلح الشعر وحده للتصدي له . ولست ازعم لنفسي قدرة خاصة على التصدي لهذا الخطر ، بل انا على العكس من ذلك أريد أن أضم صوتي الى صوت المثقفين المصريين المناضلين الذين فوجئت بأسماء أكثرهم حين هبوا للدفاع عن عروبة مصر في مظاهرة رائعة كشفت هزال ثقافة الاستسلام .

في أواسط الخمسينات عندما اعتنقت الفكرة العربية ونذرت نفسي للجهاد في سبيلها كنت التفت حولي فلا أجد الا ثلاثة او أربعة من شباب الكتاب المصريين الذين لهم مثل ايماني . لكني اكتشفت فيما بعد اننا لم نكن أول من آمن بالعروبة من المثقفين المصريين . فقد سبقنا للايمان بها الطهطاوي ، والنديم ، والمازني ، وزكي مبارك ، ومكرم عبيد ، وعبد الرحمن عزام ، ومنصور فهمي ، ومحمود عزمي ، وأحمد صبري شويمان وسواهم . وها أنا أرى ان الجيل الحاضر أكثر التفافا حول الفكرة العربية واخلاصا لها من الاجيال التي سبقته . والذين يظنون ان العروبة قد أتت مع عبد الناصر سيرون بعد قراءتهم لمختاراتي من كتابات العروبيين المصريين الذين سبقوا عبد الناصر ان عروبة مصر هي التي خلقت هذا الابن العظيم وليس هو الذي خلقها . والقياس على هذا صحيح ، فليس في وسع شخص آخر أو نظام آخر أن يقضي على العروبة . انها هي التي ستقضي عليه !

بادىس

الثقافة الجديدة

مجلة فكرية ابداعية عربية

تصدر في المغرب

تشرف عليها جماعة من المثقفين التقدميين المغاربة

المدير المسؤول : محمد بنيس

الاشتراك في الدول العربية واوروبا ٥٠ درهما أو ما يعادلها

اشتراك المؤسسات المساندة ١٥٠ درهما أو ما يعادلها

العنوان : ص.ب ٥٠٥ المحمدية ـ المغرب